# الدور الحضاري لمدينة المسيلة خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي

أ. سعداني محمد
باحث جامعة سيدي بلعباس

**Abstract**:

This research highlights the cultural role of city Masila during the fourth century AH, tenth century from prosperity has known in the cultural, and urban economic fields in the reign of Bani Hamadoun period constructed for this city a strong memory and distinctive.

**Keywords**:

Masila, Bani Hamadoun, Civilizational, Cultural, Urban.

لم يقتصر دور إمارة بني حمدون التي حكمت إقليم الزاب انطلاقا من عاصمتها **"المسيلة"**على تأمين حدود الدولة الفاطمية ،وقمع القبائل المتمردة. وإنما تجاوز الوظيفة العسكرية التي كانت تروم إحلال الأمن ،و تعزيز سلطة الخلافة.إذ انصرف الاهتمام إلى المجالات الثقافية،و العمرانية، والاقتصادية،والسعي إلى تحسين أسلوب العيش .وسيبرز لنا هذا بشكل جلي من خلال استكشاف المظاهر الحضارية في هذه الإمارة.

لقد شد الازدهار الحضاري في إمارة بني حمدون انتباه بعض المؤرخين فسجلوا ذلك في كتبهم .فنجد منهم ابن حماد الصنهاجي الذي نوه بدور علي بن حمدون وابنيه في تعمير مدينة المسيلة فذكر أنها وصلت في عهدهم" من العمارة

والحضارة" منزلة كبيرة ،وملكوا فيها "إلى الغاية القصوى والأمد الأقصى"[1].ويؤكد ابن خلدون أنهم:" استجدوا بها سلطانا ودولة،و بنوا القصور والمنتزهات واستفحل بها ملكهم وقصدهم بها العلماء والشعراء"[2]والأدباء.

ولعل اهتمام بني حمدون بالجانب الحضاري في إمارتهم يرجع إلى شخصية علي وأبنائه، و إلى تركيبتهم الثقافية في الأساس. ومن غير المستبعد أن يكون حمدون والد علي قد تشرب من الرقي الحضاري الأندلسي. ثم إن أحد أبنائه و هو أبو عبد الله محمد الأندلسي عرف عنه بأنه كان صاحب معرفة وفهم ،ومارس مهنة التعليم بالموضع الذي استوطنه ببلاد سماتة،بل قد وصل إلى درجة العلماء[3].ولا شك أن عليا كان مثل أخيه أبي عبد الله الأندلسي محبا للعلم ،ومما يشهد على ذلك المهمة التي قاموا بها في أثناء الحملة العسكرية بقيادة ولي العهد أبي القاسم الفاطمي،إذ كانت مهمة عمرانية وحضارية في الأساس.وقد تمثلت في بناء مدينة المسيلة وتحسينها وتحصينها[4].ولاريب أن نشأته في أسرة أندلسية شغوفة بالثقافة والعمارة،كان لها عظيم الأثر فيه،فجعلته يهتم بتنشيط مدينته حضاريا وعمرانيا،كما قرب إليه أهل العلم والأدب ورعاهم.ولا مراء أنه نتيجة ذلك غرس في ولديه جعفر ويحيى حب العلم وإكرام أهله .

ولا جرم أن النشاط العمراني والثقافي في إمارة بني حمدون قد برز بقوة وبلغ أوجه في عهد الأمير جعفر بن علي متبعا في ذلك سيرة أبيه،فاجتهد في تشييد القصور الفاخرة والمنتزهات الخاصة به و بأفراد أسرته[5]،وقد أكد ابن خلكان والدواداري أنه كان محبا لأهل الأدب و الشعر، فأكرمهم و أجزل لهم العطاء وأغدق عليهم الأموال[6]. وذكر ابن حيان نقلا عن الوراق في وصف جعفر بن علي أنه كان يمتلك قدرة و"مهارة بخصال من الأدب وبراعة،طار له بها في الناس حديث صار إليه الأفئدة"[7].في حين وصفه ابن بسام الشنتريني في ذخيرته أنه كان " ممتع سلع الأدب."[8] إذ من شدة اعتنائه بالعلم كانت له مكتبة خاصة به[9].وقد لجأ إليه الشاعر ابن هانئ الأندلسي حينما خرج من الأندلس هاربا ، بسبب ما سمع عنه من كرمه واحتفائه بالشعر والشعراء[10].بل نجد أن شهرته في حب أهل العلم والأدب وصلت إلى المشرق، فقد بعث إليه الشاعر الصنوبري

الشامي قصيدة من حلب يمدحه فيها[11] ، فأرسل إليه جعفر ألف دينار مكافأة له[12].وأما أخوه يحي فقد كان على معرفة بقرض الشعر، وقد ذكره ابن الأبار في كتابه " الحلة السيراء"ضمن من نظموا الشعر وبرعوا فيه[13] . ولعل التنشئة الراقية التي تلقاها هذان الأميران على يد جوذر في قصور الفاطميين كانت سببا في نزوعهما نحو حياة الترف و الرفاهية.

وقد عبر الشاعر ابن هانئ بجلاء عن مستوى الرقي الحضاري الذي بلغته إمارة بني حمدون ، ويبدو ذلك بوضوح من خلال مدائحه لأمرائها ، وإن كان قد تغنى بصفات الكرم لأمراء المسيلة ونسبهم القحطاني العريق،وفروسيتهم وشجاعتهم في الحروب، فقد جعل التغني بإقليم الزاب ووصف جماله مدخلا إلى التقرب منهم. ولعلنا لا نجد مثل هذا التعلق بالمناطق التي دخلها أو زارها ابن هانئ. ومن الغريب أن يهمل المؤرخون توصيف حضارة إمارة بني حمدون بالمسيلة، فلا نجد لها سوى إشارة عابرة عند ابن حماد الصنهاجي أو ابن خلدون كما سلف الذكر.

ويتمثل ابن هانئ الزاب عراقا في عمارته بالسكان،وكثرة حدائقه وطيب هوائه،ولا يشذ عن ذلك مدينة المسيلة بوصفها مشمولة في هذا الإقليم[**الكامل**]:

**ورأيت حولي وفدكَ قبيلة ... حتى توهمت العراق الزابا**

**أرضا وطئت الدر رضراضا بها ... والمسك تربا والريـاض جنابا**

**وسمعت فيها كل خطبة ... حتى حسبت ملوكها أعرابا**[14]

وصارت هذه البقعة من المغرب مماثلة لبغداد،المدينة التي كانت في ذلك الوقت تمثل قمة الرقي الحضاري والرفاهية،مما جعل سكان الزاب متعودين على "الترف والأناقة حتى صاروا يستخشنون النسيم العليل،"[15] وينفرون من رقته تعبيرا عن ترفهم [**الطويل**]:

**تبغدد منه الزاب حتى رأيته ... يهب نسيم الروض فيه فيستجفى**[16]

بل إن الحياة الراقية التي أوجدها أمراء بني حمدون في الزاب جعلت

الشاعر[17] يتعلق بهذا البلد،ويتمثله جنة الخلد [**الخفيف**]:

**إنما الزاب جنة الخلد فيها من نداه غضارة التفويف**

ويلاحظ بعض الباحثين أن حضارة إمارة بني حمدون ذات صبغة أندلسية في عمرانها وثقافتها و أسلوب العيش بها[18]،وأن الأمير جعفرا شيد فيها معالم تماثل معالم إشبيلية وقرطبة،ونقل إليها العوائد الأندلسية[19]. والسبب في ذلك حنين أمراء بني حمدون إلى الأندلس بوصفها الوطن الأول الذي كان متجذرا فيهم، حتى صار الأمير منهم يلقب **"بابن الأندلسي"**.بل إن أندلسيتهم جعلت النازحين من الأندلس إلى المغرب يفضلون الاستقرار بمدينة المسيلة على غيرها من المدن المغربية ،وتحولت ملجأ لهم[20]. وهذا الأمر جعل أمراء الزاب بالمغرب في منزلة "القناصل الأندلسيين"[21].ومن غير شك فإن هذه الجالية الأندلسية المستقرة بمدينة المسيلة كان لها دور كبير في ازدهار المدينة،وطبعها بالطابع الأندلسي.

وعليه،فإن أفراد أسرة بني حمدون تميزوا بتكوينهم العلمي، مما جعلهم ميالين إلى تشجيع الحركة العمرانية والثقافية بإمارتهم، وقد ساعدهم أصلهم الأندلسي على ذلك، بحيث جعل الشخصيات العلمية والأدبية الوافدة من الأندلس إلى العدوة المغربية تختار الاستقرار بإمارة بني حمدون في إقليم الزاب.ويتجلى الازدهار الحضاري الذي شهدته هذه الإمارة أكثر حينما نسلط الضوء على الجوانب الحضارية لمدينة المسيلة،عاصمة إقليم الزاب خلال القرن الرابع الهجري.

بعد أن قام علي بن حمدون ببناء مدينة المسيلة أو المحمدية وأحسن عمارتها [22]، صارت كما وصفها البكري المدينة الجليلة[23]،كما أكد صاحب "الاستبصار" بأنها "مدينة عظيمة على نظر كبير."[24] ولعل العصر الذهبي لهذه المدينة قد تجلى بوضوح في القرن الرابع الهجري ، حيث تحولت إلى عاصمة إقليمية،ومقرا لعامل منطقة الزاب كلها،وصارت مركزا لإمارة بني حمدون ،الذين عمروها وحضروها[25]،ومن ثم تحولت في عهدهم إلى مدينة مزدهرة اقتصاديا وعمرانيا وثقافيا.

1_**النشاط الاقتصادي**: تحولت مدينة المسيلة في ظل الدولة الفاطمية إلى خزان كبير من الأطعمة والحبوب والميرة واعتمد المنصور الحاكم الفاطمي عليها في مواجهة ومحاصرة أبي يزيد الخارجي المتحصن بجبل كيانة بالقرب من المسيلة[26] مما يدل على أنها كانت مدينة ذات "وظيفة تموينية "وتتوفر على ثروة اقتصادية مهمة .و يؤكد ابن حوقل بوصفه شاهد عيان على هذه المدينة في القرن الرابع الهجري أن سكانها كان لهم على نهرها "كروم وأجنة كثيرة تزيد على كفايتهم وحاجتهم ، وأن من أهم غلاتهم السفرجل المعنق المصدر إلى القيروان ، وأصله من تنس ، والقطن والحنطة والشعير ، وأنه كان لهم المواشي الكثيرة من الدواب والأنعام والبقر."[27]

وفي القرن الخامس الهجري نقل البكري عن محمد بن يوسف الوارق المعاصر لابن حوقل أن مدينة المسيلة، تسقى من نهر سهر عن طريق منافذ موجودة في السور المحيط بها ، وفيها" أسواق وحمامات ، وحولها بساتين كثيرة ، ويجود عندهم القطن ، وهي كثيرة اللحم رخيصة السعر. "[28] وقد استمرت هذه المدينة في رخائها الاقتصادي بعد غزوة بني هلال ،وهذا ما يؤكده الإدريسي بوصفه أحد جغرافي القرن السادس الهجري، حيث أخبرنا أنها كانت عامرة بالناس والتجار،وأن لها نهرا فيه ماء كثير،وهو عذب، ولأهلها سوائم خيل وأغنام و أبقار . ولها مزارع ممتدة أكثر مما تحتاج إليه،ولها جنات وعيون وفواكه و بقول، ومزارع قطن وقمح وشعير ، ولحوم.[29] ويصفها أيضا صاحب "الاستبصار" الذي عاش في القرن السادس الهجري بأنها كثيرة النخل والبساتين، تشقها جداول المياه العذبة[30]. ويلاحظ من خلال وصف ابن حوقل والإدريسي لشبكة الطرق والمسالك التي تربط شرق المغرب بغربه أن المسيلة كانت تعد مركز التقاء الطرق البرية الداخلية المستخدمة في الفعاليات التجارية المغربية في القرنين 4هـ/10م 6هـ/12م[31].

من خلال هذه المعلومات الجغرافية التي زودنا بها هؤلاء الرحالة الجغرافيون نستشف أن مدينة المسيلة في ظل إمارة بني حمدون كانت عامرة بالسكان، وكانت منطقة مهمة للإنتاج الزارعي والحيواني.فضلا عن أنها ذات أرض خصبة ،و تتوفر على نهر كثير الماء ،وهذا قد شجع سكانها على العمل في الزراعة و ترقية

الإنتاج الفلاحي وازدهار مهن وصناعات لها علاقة بإنتاج الأرض؛ فتنوعت بها المزروعات وكثرت بها الخيرات من قمح وشعير وفواكه وبقول ،واشتهرت بصفة أخص بزراعة القطن وبسفرجلها المعنق المصدر إلى القيروان .وهي أيضا مدينة رعوية تربى فيها أنواع المواشي من غنم وبقر.ثم إنها كانت من الحواضر الإسلامية المرتبطة بطرق المواصلات ومسالك التجار والمسافرين، مما أكسبها أهمية تجارية كبيرة،فتحولت إلى مركز تجاري مهم في منطقة الزاب بخاصة ،وفي المغرب عامة.

2_ **الجانب العمراني:** وفيما يتعلق بالجغرافية العمرانية لمدينة المسيلة فلا نجد إلا إشارات مختصرة من بعض المؤرخين والرحالة عن هذه الناحية دون إعطاء أي تفاصيل عن أبنيتها وأحيائها وعدد سكانها.فابن حيان نقلا عن الوراق ذكر أن علي بن حمدون أحسن عمارتها وحصنها بسور[32]، غير أن الجغرافيين والمؤرخين اختلفوا في وصفه ، فابن حوقل يخبرنا أن عليها سورا حصينا من طوب[33]، أما البكري وابن عذارى فيذكران أن للمدينة سورين [34]، ولكن يختلفان في مكان الماء المحيط بهما، فالبكري يقول إن عليها سورين بينهما ماء جار يستدير بالمدينة ،وله منافذ تسقى منها عند الحاجة [35]، أما ابن عذارى فيذكر أن الماء يجري حول السور الخارجي وليس في وسط السورين[36]،ويمكن التوفيق بين هاتين الروايتين بحيث نعتبر أن ابن حوقل ذكر ما شاهده في مدينة المسيلة عند مروره بها،وأما ما أورده البكري وابن عذارى من وجود سورين حول هذه المدينة،فربما تم إنشاؤه بعد عهد ابن حوقل[37].

وفي هذا السياق ، لا بأس أن أذكر هنا ما لاحظه الحسن الوزان في رحلته عندما مر بالمسيلة في القرن العاشر الهجري ،إذ يخبرنا أن "أسوار المسيلة المحيطة بها جميلة بخلاف الدور فإنها قبيحة ."[38] وربما كانت هذه الأسوار الجميلة من بقايا ذلك الازدهار العمراني الذي عرفته المدينة في القرن الرابع الهجري .وأما أبواب المدينة ، فقد ذكر ابن حماد أن عددها اثنان ؛ باب القاسمية نسبة إلى مؤسس المدينة أبي القاسم الفاطمي ، وباب الأمور[39].

وذكر البكري أنها تمتاز بكثرة حماماتها[40]،ووصفها الإدريسي بأنها كانت عامرة بالناس[41]. وابن حماد أشاد بازدهار العمارة بها في إمارة علي بن حمدون وابنيه جعفر ويحيى وذكر أنها بلغت الغاية القصوى والأمد الأقصى[42].وأما ابن خلدون فقد انفرد ببعض التفصيل عن الناحية العمرانية لمدينة المسيلة رغم ما

فيه من الاختصار الشديد،فهو أورد أن بني حمدون اهتموا ببناء القصور والمنتزهات[43] دون أن يعطينا تفاصيل وافية عن مواقع هذه المنشآت المعماريةوأوصافها وأسمائها.

و مما زاد الأمر غموضا وتعقيدا عن عمران هذه المدينة هو الاندثار والاختفاء الكلي لهذه القصور الحمدونية بحيث لا نجد لها أثرا على الأرض،مما يصعب عملية البحث في آثار هذه المدينة[44]،ولعل هذا يرجع إلى التخريب الذي تعرضت له فيما بعد في خضم الصراعات والحروب،فقد وقعت ضحية لموقعها المفتوح غير المحصن و "الشبه الأمامي" بين مناطق الصراع بين الحفصيين والمرينيين،فأدى هذا إلى ظهور الاضمحلال عليها والذبول تدريجيا،واضطراب الأوضاع فيها،وتعرض آثارها العمرانية إلى التدمير و المحو من على وجه الأرض.

ولقد وردت إشارات ذات قيمة توثيقية في شعر ابن هانئ[45] عن عناية أمراء بني حمدون ببناء القصور العظيمة،والمرفهة و العالية[الطويل]:

**وكم لك من قصر سواه مشيد ... تسير به البزل العناجيج تهدر**

وقال أيضا في مدح جعفر بن علي من خلال جلال القصور[الكامل]:

**إن تمتثل منها الملوك قصوركم ... فلطالما كانوا لها حجابا**[46]

وفي موقف آخر نجد الشاعر يهنئ الأمير جعفرا بمناسبة انتهائه من تشييد قصر فاخر[الطويل]:

**ألكني إلى القصر المشيد تحية ... فقد حدث الركبان عنه فأكثروا**

**فرغت له من بعض شغلك في الوغى ... ومثلك عن إغفاله ليس يعذر**

**ليشكرك في تأسيسه آلا جعفر ... فمثل الذي يبقى لها الفخر يشكر**[47]

وقد شد بياض جدران القصور انتباه الشاعر ،لما أضفاه على المكان من جمالية[ الطويل]:

**ونور القصور البيض يعمر ملكها ... ملوك الدنيا وهن الكرائم**[48]

ويكاد يكون اللون الأبيض ملازما للقصور الحمدونية،إذ يتكرر ذلك

حينما يصف ابن هانئ[49] مجلسا بناه إبراهيم بن جعفر[الكامل]:

**تغدو القصور البيض في جنباته صورا إليه يكل عنه عيانها**

وقد استرعى نظر الشاعر أيضا القباب البارزة عل سقوف القصور المشيدة[الكامل]:

**أحبب بتيك القباب قبابا ' بالحداة ولا الركاب ركابا[50]**

وهو بذلك يشير إلى نوع التسقيف الذي تميزت به هذه القصور،وهذه الميزة نجدها مستعملة كثيرا في الفن المعماري الفاطمي ،وقد،وصفت بأنها:"القبة ذات الزوايا البارزة المتكونة من تقاطع قوسين في شكل نصف أسطواني."[51]وحضورها في القصور الفاطمية هو نوع من التجديد في الهندسة المعمارية[52].

ويشير الشاعر[53] إلى أن هذه القصور الفاخرة عامرة بالجواري وألوان الترف واللهو،مما جعل حياة أمراء بني حمدون يغلب عليها الترف والليونة والرقة[الطويل]:

**فرغت من المجد الذي أنت شائد فجر ذيول العيش في الزمن النضر**

**ومازلت ، توي السيف في الروع من دمٍ؛ فحقك أن توي الثرى من دم الخمر**

**وتهم بالبيض الأوانس كالدمى وترفل من دنياك في حلل خضر**

ومن ثم وجود فئة الجواري في القصور الحمدونية دليل على اهتمام بني حمدون بالموسيقى والرقص،و اشتمال قصورهم ومجالس أنسهم على عدد من الفنانين والمغنيين وأصحاب آلات الطرب[54].

وليس من الغريب أن يهتم ابن هانئ بذكر قصور الأمراء في قصائده،إذ نجده يشير إلى أن كل أمير يملك قصره الخاص ،ويظهر ذلك من خلال القصيدة التي كتبها في مدح جعفر ويحيى ابني علي ،فنلفيه يهنئ يحيى بجارية أهداها له جعفر،والملاحظ هنا أنها انتقلت من قصر إلى قصر،وهما موصوفان بالعلو والارتفاع[الطويل]:

**فمن ملكٍ سامٍ إلى ملكٍ رضى تهادت ومن قصر،منيفٍ إلى قصر[55]**

ونجد أيضا في هذه القصور مجالس خاصة بالأمراء ،وفيها تستقبل الوفود[**الطويل**]:

**فأشفع فيه للوفود إلى الثنا لي الإذن فيه والمقام المشهر**(56)

وقد تقترن المجالس بدلالة الألفة والقداسة إذ يعبر عنها الشاعر(57) بلفظ"منسك" الذي له خلفية دينية توحي بالطهارة والعظمة ،ومن ثم مجلس الأمراء مقصد مرغوب للوفود[**الخفيف**]:

**منسك للوفود يعتام قد نضى المطايا بطول خبرتك**

وعلى هذا تبدو الوفود مزدحمة على باب الأمير يحيى[**الطويل**]:

**وقعدو على يحيى الوفود ببابه كما ابتوأ الحطيم المواسم**(58)

وفي هذه القصور سرير يجلس عليه الأمير لاستقبال الوفود و القيام بمهام الإمارة،وثمة أيضا رواق ممدود[**الكامل**]:

**لقد اغتدى والمجد فوق سريره والغيث تحت رواقه الممدود**(59)

وإن كان وصف الشاعر للقصور مقتضبا، إلاأنه يفيد بأن أمراء بني حمدون كانوا مهمتين بالعمارة،فأكثروا من بناء القصور البيضاء،ذات القباب والأروقة،والتي كانت مقرا يديرون منه شؤون إمارتهم،ويستقبلون وفود الشعراء وزعماء القبائل،وكأن إمارتهم مملكة صغيرة مستقلة.

ومن مظاهر العمران والترف الحضاري،نذكر أيضا اهتمام أمراء بني حمدون بتشييد مجالس الأنس واللهو والمنتزهات، وقد نظم ابن هانئ قصيدة في وصف مجلس من مجالس اللهو التي بناها إبراهيم بن جعفر،وسنلاحظ من خلال ما سيقدمه من أوصاف لهذا المجلس مدى الرقي الذي وصلته فنون الزخرفة والنقش و العمارة في ظل إمارة بني حمدون.وقد بدأ ابن هانئ(60) قصيدته بتصوير الشمس المتعبة العيون الدامعة انهارا وغيرة مكتومة من جمال مجلس إبراهيم بن جعفر؛إذ يتضاءل لمعانها أمام ضيائه [**الكامل**]:

**الشمس عنه كليلة أجفانها عبرى يضيق بسرها كتمانها**

**لو تستطيع ضياءه لبنت له يعشو إلى لمعانه لمعانها**

وذكر الشاعر أن لهذا المجلس إيوان ينافس ويفوق إيوان كسرى [**الكامل**]:

**إيوان ملكٍ لو رأته فارس ، نعرت وخر لسمكه إذعانها**[61]

وفوق ذلك تصبح القصور البيض المحيطة به مائلة إليه إعجابا، حتى أنها تتعب من طول النظر إلى حسنه[**الكامل**]:

**تغدو القصور البيض في جنباته صورا إليه يكل عنه عيانها**[62]

ويتميز هذا المجلس بقبته البيضاء المتطاولة علوا،فيغدو ارتفاعها طيرانا حتى أن ريح الصبا لا تستطيع بلوغ سموها رغم شهرتها بالسرعة،ومن حولها ضربت أروقة ترفرف وتخفق بليونة كما لو أنها طائر العقاب.وهي موشاة كأنها ثوب فارسي أبيض اللون،مزين بالمرجان والدر. وأمام هذا الحسن الباهر لا تستطيع العين مقاومة هذا السحر.وفي هذه الأروقة أيضا ستور أطرافها كأنها الأوشحة الجميلة المزينة باللؤلؤ. كما يصور الشاعر إلى جانب ذلك جنبات هذا المجلس وكأنها حدائق غناء تلونت بشتى الألوان الزاهية.ثم إنه يطلب من الداخل إلى هذا المجلس أن يحدق النظر في حيطانه وسقوفه المزخرفة[**الكامل**]:

**والقبة البيضاء طائرة به ، تهوى بمنخرق الصبا أعنانها**

**ضربت بأروقةٍ ترفرف فوقها فهوى بفتح قوادم خفقانها**

**وتعوضت طرز الستور كأنها عنبات أو شحةٍ يروق جمانها**

**وكأن أفواف الرياض ، ثرن في صفحاتها فتوقفت ألوانها**

**فأدر جفونك و اكتحل بمناظر؛ غشى فرند لجينها عقيانها**

**مستشرفاتٍ من خدور أوانس مصفوفةٍ قد ظلت تيجانها** [63]

والظاهر أن هذه المجالس كانت حافلة بمظاهر اللهو من رقص وغناء و خمرة وجواري مما دفع ابن هانئ أن يدعو الأمير جعفر بن علي إلى عدم الحضور حفاظا على منزلته،وتوقيرا له [**الكامل**]:

**حاشيت قدرك من زيارة مجلس ولو أن فيه كواكب الجوزاء**[64]

ويذكر ابن هانئ أنه اجتمع مع جماعة من أصحابه الشعراء في مجلس أنس ،يتسامرون بقرض الشعر وامتداح الأمير جعفر ثناء عليه[**الكامل**]:

**إنا اجتمعنا في الندي عصابة نثني عليك بألسن الغمماء**

**إن الذي جمع المعلى لك كلها ألقى إليك مقالد الشعراء**[65]

وعلى هذا الأساس جمعت هذه المجالس أحيانا بين اللهو وإلقاء الشعر و إثارة قضايا أدبية ، وما يصحب ذلك من غناء وعزف على آلات الطرب. ومن غير المستبعد أن الجالية الأندلسية الوافدة على المسيلة كان لها دور في تشييد مثل هذه المجالس.

**3_الدور الثقافي:** عرفت المسيلة عصرها الذهبي ثقافيا في زمن إمارة بني حمدون ،حيث صارت حاضرة للعلم ، ووسطا ثقافيا راقيا ، و مركزا كبيرا للأدب ؛فألمها العلماء والأدباء من كل فج وصوب،وبالأخص حين صار جعفر بن علي أميرا عليها[66]،إذ فتح بلاطه للأدباء والشعراء ،فرحب بهم وأكثر لهم العطاء[67].ولعل الجو الأدبي الذي أشاعه في مدينة المسيلة، كان سببا في تنشيط الحياة الثقافية بعد زوال إمارته، حيث كانت هذه المدينة مهادا لعدد من الأدباء البارزين . ففي القرن الخامس هجري/ الحادي عشر ميلادي برز الشاعر باديس عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي المتوفي سنة 405هـ/1014.1015م،وهو لم يفارق المسيلة إلا قبل مدة قليلة من وفاته بالمهدية.وقد كان عارفا باللغة والشعر، خبيرا بأيام العرب[68].

وظهر في هذه المدينة أيضا نابغة من نوابغ الأدب ، وهو الأديب ابن رشيق المسيلي المشهور بالقيراوني (ت.456هـ/1064م).ورغم خفوت مكانة المسيلة السياسية في القرون التالية للقرن الرابع الهجري ، خاصة بعد بناء قلعة بني حماد، إلا أنها استمرت في إنجاب العلماء الذين ينسبون إليها ؛ ومنهم الفقيه المالكي حسين بن محمد بن سلمون،أبو علي المسيلي (ت.431هـ/1040م)

،والقاضي عبد الله بن حمو المسيلي الذي له معرفة بالأصول والفروع[69]، والفقيه المالكي حسن بن علي بن محمد المسيلي، (ت.580/1185م)[70]، والفقيه المفسر أحمد بن محمد بن أحمد المسيلي(ت بعد 785هـ/1383م)[71].

غير أن ابن هانئ كان أبرز شخصية أدبية في مدينة المسيلة خلال القرن الرابع الهجري ،وفي ظل إمارة بني حمدون ،حيث كان ممن استقبلهم الأمير جعفر في بلاطه وأكرمهم وقربهم إليه. و بلا شك يعد هذا الشاعر من أهم نبغاء الثقافة الأدبية بإفريقية في العصر الفاطمي ،كما أن له علاقة متميزة بمدينة المسيلة وبأسرة بني حمدون.و يظهر ذلك جليا من خلال شعره الذي تضمن إشارات تاريخية وسياسية وحضارية عن هذه الأسرة .

ولعل اشتراك الشاعر ابن هانئ و بني حمدون في الموطن والأصل،هو ماجعل علاقته بهم عميقة، بحيث يعتقد قارئ القصائد التي خصصها لهم ،أنه واحد منهم ،فهو لا يكتفي بمديحهم كما تعود مع غيرهم من الممدوحين .بل كان يشاركهم أفراحهم وأتراحهم.ونلاحظ ،أنه نظم ثلاث قصائد رثائية[72] في مواساة عائلة بني حمدون في مصابهم؛اثنتان في رثاء أم جعفر ويحيى [73] ،والثالثة في موت ابن جعفر[74].كما نراه ينظم شعرا في مرض أصاب الأمير جعفر، وفي يحيى حينما عالج نفسه بالفصد[75].ونلاحظ أن ابن هانئ قد عدد بعض أفراد أسرة بني حمدون في شعره[76].

ومما يدل على الارتباط الوثيق بين ابن هانئ وأسرة بني حمدون، أنه لم يفرد شعره لفرد واحد من هذه الأسرة،بل نجده يوزع قصائده ومدائحه على أفرادها، فقد خلد في شعره الأمير جعفرا وأخيه يحيى ، وإبراهيم بن جعفر.وهذا بخلاف ما نجده في قصائده التي نظمها في ممدوحيه الذين اتصل بهم ،إذ اكتفى بمدحهم فقط.ونجد أن معظم ديوانه متعلق بأسرة بني حمدون،حيث نظم تسعا وعشرين قصيدة خاصة بأمراء المسيلة[77].و خصص خمس عشرة قصيدة ومقطوعتين في مدح جعفر،أما يحيى فقد مدحه

بخمس قصائد وأربع مقطوعات،كما مدحهما في قصيدة مشتركة[78].وعدد الأبيات التي نظمها فيهما معا ألفان وستمائة وأربعون(2640بيتا)[79].

وقد صرح ابن هانئ[80] عن العلاقة المميزة والقوية التي تربطه بأسرة بني حمدون،إذ اعتبر نفسه واحدا منهم[**الكامل** ]:

**بإنا لتجمعنا وهذا الحي ـ ـ بكرٌ لئمة سالفٍ لم تخفر**

**أحلافنا فكأنّنا من نسبةٍ ولداتنا فكأنّنا من عصر**

ويؤكد الشاعر[81] أيضا على ارتباطه ببني حمدون من حيث النسب[**الطويل** ]:

**فمهلا !بني عمي وأعيان معشري وأملاك قومي والخضارم من**

و يبدو أن ابن هانئ بقي في بلاط جعفر بن علي أكثر من سنتين قبل أن يرحل إلى الخليفة المعز ويقيم عنده،وقد علل ذلك بعض الباحثين بوفرة شعره عن بني حمدون،إذ رأوا أنه من غير الممكن أن يكون نصف ديوانه الذي خص به هذه الأسرة قد أنتجه في مدة عامين. وأغلب الظن أن رحيله إلى بلاط المعز كان حوالي سنة 353هـ/964م ،وهذا ما ذهب إليه محمد اليعلاوي وأبو القاسم محمد كرو[82] بالاستناد على أن أول قصيدة نظمها ابن هانئ بالقيروان/المنصورية كانت في سنة353هـ[83]. ويلاحظ أن كثرة قصائده في أمراء بني حمدون ترجح استمراره في نظم قصائد المدح المتعلق بهم ،وإرسالها إليهم[84]. وهذا يعني أن علاقته ببني حمدون استمرت سواء عن طريق إرسال مدائحه إلى جعفر وهو ملازم للمعز ببلاطه[85]، أو أنه ربما كان يزورها بين الحين والآخر بمدينة المسيلة. والظاهر،أن صلة الشاعر ببني حمدون يغلب عليها الجانب الوجداني والعائلي والإنساني،بحيث يمكن

وصفها بأنها علاقة مودة وصداقة ووفاء[86]. حتى أننا لا نجد لها نظيرا في علاقته بممدوحيه الآخرين .

وعلى العموم، تركت أسرة بني حمدون بصماتها التاريخية على الخريطة العمرانية والسياسية لمنطقة المغرب حيث إنها صاحبة الفضل في بناء مدينة المسيلة وتعميرها.واستطاعت أيضا أن تؤسس لنفسها إمارة قوية،وساهمت من خلالها في تنشيط منطقة المغرب حضاريا وعمرانيا وثقافيا،وبالأخص إقليم الزاب الذي شيدت له ذاكرة تاريخية مميزة.

## الإحالات:

(1) ابن حماد،أبو عبد الله محمد بن علي بن حماد،أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم،تحقيق التهامي نقرة وعبد الحليم عويس.القاهرة:دار الصحوة،سنة1401هـ،ص46.

(2) ابن خلدون،عبد الرحمن،ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر،ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار.بيروت:دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،سنة2000م،ج4،،ص108.

(3) القاضي النعمان،أبو حنيفة بن محمد المغربي ،افتتاح الدعوة ،تحقيق فرحات الشراوي.تونس:الشركة التونسية للطباعة والنشر،سنة 1975.ص39.

(4) ابن حيان ،أبو مروان حيان بن خلف القرطبي ، المقتبس في أخبار بلد الأندلس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي.بيروت:دارالثقافة ،ص34.

(5) ابن خلدون،ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ،ج4،ص108.

(6) ابن خلكان،أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر،وفيات الأعيان وأنباء الزمان،تحقيق إحسان عباس.بيروت:دار الثقافة،سنة1968.،ج1،ص360. الدواداري،كنز الدرر و جامع الغرر،الدرة المضية في الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد.القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر،قسم الدراسات الإسلامية بالمعهد الألماني للآثار،سنة 1380هـ/1961م،ج6،ص242.

(7) ابن حيان،المقتبس،تحقيق عبد الرحمن علي الحجي،ص34.

[8] ابن بسام أبي الحسن علي الشنتريني،الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة،تحقيق سالم مصطفى البدري.بيروت:منشورات محمد علي بيضون،دار الكتب العلمية،ط1،سنة 1419هـ/1998م،ص126.

[9] محمد اليعلاوي،ابن هانئ المغربي الأندلسي،شاعر الدولة الفاطمية.بيروت:دار الغرب الإسلامي،سنة 1405هـ/1985م،ص23.

[10] الدواداري،كنز الـ ـدرر و جامع الغرر،الدرة المضية في الدولة الفاطمية، تحقيق صلاح الدين المنجد ،ج6،ص242.

[11] ينظر محمد اليعلاوي،ابن هانئ المغربي الأندلسي،صص120،121.

[12] ابن بسام الشنتريني، الذخيرة،ص126.

[13] الحلة السيراء،تحقيق حسين مؤنس،القاهرة،دار المعارف،ط2،سنة 1985.،صص305،308.

[14] ابن هانئ الأندلسي، ديوان ابن هانئ الأندلسي:شرح وتعليق حمدو أحمد طماس.لبنان:دار المعرفة،ط1،سنة1426هـ/2005.،ص53.

[15] محمد اليعلاوي،ابن هانئ المغربي الأندلسي،صص 181،182.

[16] ديوان ابن هانئ الأندلسي،ص196.

[17] المصدر نفسه،ص199.

[18] بوعبدلي، المهدي :ماضي المسيلة السياسي والثقافي عبر التاريخ والخلاف بين زيري بن مناد وجعفر بن علي أمير مسيلة.مجلة التاريخ،الجزائر،العدد 6،جويلية 1978.،صص136،138،144.

[19] L.Golvin,Le Magrib Central a l'époque des Zirides,Recherches d' Archéologie et d'Histoire.Paris :arts et métiers graphiques ,1957,p159.

[20] محمد اليعلاوي،ابن هانئ المغربي الأندلسي،ص88.

[21] محمد اليعلاوي:بلاط بني حمدون بالمسيلة من خلال شعر ابن هانئ لأندلسي، مجلةالأصالة،الجزائر، السنة (4) ،العدد(24)،مارس أبريل،مطبعة البعث قسطينة،السنة 1975.،ص51.

[22] ابن حيان ، المقتبس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ،ص34.

[23] البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز المرسي،المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، تحقيق دوسلان De Slane. القاهرة: دارالكتاب ،ص59.

[24] مؤلف مجهول،كتاب الإستبصار في عجائب الأمصار،تحقيق سعد زغلول عبد الحميد.الدار البيضاء،المغرب:دار النشر العربية،سنة 1985.،ص172.

(25) ابن حيان ، المقتبس، تحقيق عبد الرحمن علي الحجي ،ص 34.

(26) ابن حماد الصنهاجي، أخبار بني عبيد،ص47.

(27) ابن حوقل:أبو القاسم محمد بن علي البغدادي النصيبي ،صورة الأرض.بيروت:منشورات دار مكتبة الحياة ،ص85.

(28) البكري،المغرب،ص59.

(29) الإدريسي،أبو عبد الله محمد الشريف السبتي،المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق،تحقيق محمد صادق الحاج.ديوان المطبوعات الجامعية،سنة 1983، ص 108.

(30) مؤلف مجهول،الإستبصار،ص172.

(31) الإدريسي،المغرب العربي،صص،109،110.

(32) ابن حيان،المقتبس،تحقيق عبد الرحمن علي الحجي،ص34.

(33) ابن حوقل ، صورة الأرض ،ص 85.

(34) البكري ، المغرب ، ص59. ابن عذارى، المراكشي أبو العباس أحمد بن عذارى،البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ج.س.كولان و إ.ليفي بروفنسال.بيروت،دار الثقافة،ط2،سنة 1400هـ1980م،ج1 ، ص190.

(35) المصدر نفسه،ص 59.

(36) ابن عذارى ، البيان،ج1 ، ص190.

(37) مرمول ، محمد الصالح :السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الإسلامي.الجزائر،ديوان المطبوعات الجامعية الجزائرية،سنة 1983.،صص298،299.

(38) حسن محمد الوزان الفاسي ، وصف افريقيا ،ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر.بيروت،دار الغرب الإسلامي،الرباط،الشركة المغربية للناشرين،ط2،ج2،سنة1983، ص 52.

(39) ابن حماد، أخبار بني عبيد،ص46.

(40) البكري،المغرب،ص59.

(41) الإدريسي ، المغرب العربي ، ص 108.

(42) ابن حماد الصنهاجي، أخبار بني عبيد،ص46.

(43) ابن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ،ج4،ص108.

(44) Golvin .L,Le Magrib Central a l'époque des Zirides,Recherches d' Archéologie et d'Histoire,p159_

(45) ديوان ابن هانئ الأندلسي،ص165.

(46) المصدر نفسه،ص53.

(47) نفسه،ص163.

(48) نفسه،ص308.

(49) نفسه،ص324.

(50) نفسه،ص50.

(51) جورج مارسي ،الهندسة المعمارية الإسلامية في المغرب،باريس ،1954،نقلا عن إدريس ،الهادي روجي :الدولة الصنهاجية،تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10 إلى القرن 12م، نقله إلى العربية حمادي الساحلي.بيروت:دار الغرب،ط1،سنة 1992،ج2 ،ص432.

(52) ينظر روجي الهادي إدريس،الدولة الصنهاجية،ج2،صص431،432،433.

(53) ديوان ابن هانئ الأندلسي،ص147.

(54) حسن حسني عبد الوهاب،ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسية.تونس:مكتبة المنار،سنة 1966، القسم الثاني،ص206.

(55) ديوان ابن هانئ الأندلسي،ص147.

(56) المصدر نفسه،ص165.

(57) نفسه،ص228.

(58) نفسه،ص305.

(59) نفسه،ص104.

(60) ا نفسه،ص324.

(61) نفسه،ص324.

(62) نفسه،ص324.

(63) نفسه،ص325.

(64) نفسه،ص23.

(65) نفسه،ص23.

(66) عثمان الكعاك،موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي.بيروت:دار الغرب الإسلامي،ص161.

(67) ابن خلكان،وفيات الأعيان،ج1،ص360.

(68) عمر فروخ،تاريخ الأدب العربي ، الأدب في المغرب والأندلس إلى آخر عصر ملوك الطوائف.بيروت:دار للملايين،ط2،سنة 1984،ج4،سنة 1984،ص342.

(69) ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك،كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق صلاح الدين الهواري.بيروت:المكتبة العصرية،ط1،سنة 1423هـ/2003م،مج1،صص134،247.

(70) الغبريني أبو العباس أحمد بن أحمد،عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية،تحقيق رابح بونار.الجزائر:الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،سنة 1981،ص66.

(71) الحفناوي أبو القاسم محمد،تعريف الخلف برجال السلف.الجزائر:موفم للنشر،ج1،سنة1991،ص327.

(72) أحمد خالد:ابن هانئ. الجزائر:الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،تونس:الشركة التونسية للتوزيع،سنة 1976،ص44.

(73) ينظر ديوان ابن هانئ الأندلسي،صص30،154.

(74) المصدر نفسه ،ص112.

(75) نفسه،ص103.

(76) نفسه ، صص115،66.

(77) محمد اليعلاوي،ابن هانئ المغربي الأندلسي،ص47.

(78) وأما الخليفة المعز فقد مدحه ابن هانئ بإحدى وعشرين قصيدة ومقطوعتين ، وسميت كلها بالمعزيات". أحمد خالد، ابن هانئ،ص45. وعدد الأبيات التي قالها فيه ابن هانئ( 1774) بيتا.عمر فروخ،تاريخ الأدب العربي،ج4،ص268.

(79) أحمد خالد، ابن هانئ ،ص45.وعند عمر فروخ أن عدد الأبيات الشعرية التي نظمها ابن هانئ في جعفر وآله(1631) بيتا.

(80) ديوان ابن هانئ الأندلسي،ص152.

(81) المصدر نفسه ،ص149.

(82) محمد اليعلاوي، ابن هانئ المغربي الأندلسي ،صص 4،49،122. كرو ،أبو القاسم محمد ، ابن هانئ الأ ندلسي متنبي الغرب.تونس:الدار العربية للكتاب، سنة 1984،ص15.

(83) محمد اليعلاوي، بلاط بني حمدون بالمسيلة من خلال شعر ابن هانئ،ص52.

(84) أبو القاسم محمد كرو،ابن هانئ الأندلسي متنبي المغرب،ص15.

(85) محمد اليعلاوي، بلاط بني حمدون بالمسيلة من خلال شعر ابن هانئ الأندلسي،ص52.

(86) المرجع نفسه،ص54.